بطنه فاستسقى بطنه فمات منه ، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر إزاره وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له فتعلق سهم من نبله بازاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء فانتقض به فقتله ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت فى أخمص قدمه فقتلته ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله ، قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن رجل عن ابن عباس قال كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذى جمعهم وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحق به عن يزيد عن عروة بطوله إلا أن سعيدا يقول الحارث بن غيطلة وعكرمة يقول الحارث بن قيس قال الزهرى وصدقا هو الحارث بن قيس وأمه غيطلة وكذا روى عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد أنهم كانوا خمسة وقال الشعبى كانوا سبعة والمشهور الأول وقوله (الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر وقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) أى وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا بهيدنك ذلك ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله وتوكل عليه فانه كافيك وناصرك عليهم فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التى هى الصلاة . ولهذا قال (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية عن كثير بن مرة عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » ورواه أبو داود والنسائى من حديث مكحول عن كثير بن مرة بنحوه ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، وقوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال البخارى قال سالم الموت وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثنا طارق بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال الموت وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا (لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين) وفى الصحيح من حديث الزهرى عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أن الله أكرمه : » فقلت بأبى وأمى يارسول الله فمن ؟ فقال « أما هو فقد جاءه اليقين وإنى لأرجو له الخير » ويستدل بهذه الآية الكريمة وهى قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً فيصلى بحسب حاله كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب » ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت كما قد مناه ولله الحمد والمنه والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فانه جواد كريم . آخر تفسير سورة الحجر والحمد لله رب العالمين .

﴿ تفسير سورة النحل وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرا بصيغة الماضى الدال على التحقق والوقوع لا محالة كقوله (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) وقال(اقتربت الساعة وانشق القمر) وقوله (فلا تستعجلوه) أى قرب ماتباعد فلا تستعجلوه يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب وكلاهما متلازم كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وقدذهب الضحاك فى تفسيرهذه الآية إلى قول عجيب فقال فى قوله (أتى أمر الله) أى فرائضه وحدوده وقدرده ابن جرير فقال : لانعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب فانهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكذيبا ، قلت كماقال تعالى (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد)

وقال ابن أبى حاتم ذكر عن يحيى بن آدم عن أبى بكر بن عياش عن محمد بن عبدالله مولى المغيرة بن شعبة عن كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن حجيرة عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « تطلع عليكم عندالساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس ، فماتزال ترتفع فى السماء ثم ينادى مناد فيها : ياأيها الناس فيقبل الناس بعضهم على بعض :هل سمعتم ، فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك ، ثم ينادى الثانية يا أيها الناس فيقول الناس بعضهم لبعض : هل سمعتم ، فيقولون نعم ، ثم ينادى الثالثة ياأيها الناس أتى أمر الله فلاتستعجلوه » قال رسول الله ﷺ « فوالذى نفسى بيده إن الرجلين لينشران الثوب فمايطويانه أبدا ، وإن الرجل ليمدن حوضه فمايسقى فيه شيئا أبدا ، وإن الرجل ليحلب ناقته فمايشربه أبدا - قال - ويشتغل الناس » ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ماسواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال (سبحانه وتعالى عمايشركون)

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى (ينزل الملائكة بالروح) أى الوحى كقوله (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) وقوله (على من يشاء من عباده) وهم الأنبياء كماقال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وقال (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار) وقوله (أن أنذروا) أى لينذروا (أنه لاإله إلاأنا فاتقون) أى فاتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى وعبد غيرى

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لاللعبث بل (ليجزى الذين أساءوا بماعملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لاشريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لاشريك له ، ثم نبه على خلق جنس الانسان من نطفة أى مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذاهو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله وهو إنما خلق ليكون عبداً لاضدا كقوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً * ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً) وقوله (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش قال بصق رسول الله ﷺ فى كفه ثم قال «يقول الله تعالى ابن آدم : أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟ »

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما فصلها فى سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ولهذا قال (ولكم فيها جمال حين تريحون) وهو وقت رجوعها عشيا من المرعى فانها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعا وأعلاه أسنمة (وحين تسرحون) أى غدوة حين تبعثونها إلى المرعى (وتحمل أثقالكم) وهى الأحمال الثقيلة التى تعجزون عن نقلها وحملها (إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك تستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) وقال تعالى (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ،) ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم (إن ربكم لرءوف رحيم) أى ربكم الذى قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وقال (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون) قال ابن عباس (لكم فيها دفء) أى ثياب (ومنافع) ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة ، وقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس : دفء ومنافع نسل كل دابة ، وقال مجاهد لكم فيها دفء أى لباس ينسج ومنافع مركب ولحم ولبن ، وقال قتادة : دفء ومنافع يقول لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير التى جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها كالإمام أبى حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير وهى حرام كما ثبتت به السنة النبوية وذهب إليه أكثر العلماء ، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا هشام الدستوائى حدثنا يحيى بن أبى كثير عن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير وكان يقول قال الله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) فهذه للأكل (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) فهذه للركوب ، وكذا روى من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة أيضا رضى الله عنه ، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية ابن الوليد حدثنا ثور بن يزيد عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معديكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد رضى الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير . وأخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث صالح ابن يحيى بن المقدام وفيه كلام ، ورواه أحمد أيضا من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا محمد بن حرب حدثنا سليمان بن سليم عن صالح بن يحيى بن المقدام عن جده المقدام بن معديكرب قال غزونا مع خالد ابن الوليد الصائفة فقدم أصحابنا إلىّ اللحم فسألونى رمكة فدفعتها إليهم فحبلوها وقلت مكانكم حتى آتى خالدا فأسأله فأتيته فسألته فقال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس فى حظائر يهود فأمرنى أن أنادى الصلاة جامعة ولا يدخل الجنة إلا مسلم ثم قال « أيها الناس : إنكم قد أسرعتم فى حظائر يهود ، ألا لا يحل أموال المعاهدين إلا بحقها

وحرام عليكم لحوم الحمر الأهلية وخيلها وبغالها وكل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » والرمكة هى الحجرة ، وقوله حبلوها أى أوثقوها فى الحبل ليذبحوها ، والحظائر البساتين القريبة من العمران وكأن هذا الصنيع وقع بعد اعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر والله أعلم . فلو صح هذا الحديث لكان نصاً فى تحريم لحوم الخيل ولكن لا يقاوم ماثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى لحوم الخيل . ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وفى صحيح مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة . فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعى وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم . وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال كانت الخيل وحشية فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وذكر وهب بن منبه فى إسرائيليا نه أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب والله أعلم . فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البعال ، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن انزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل . قال الإمام أحمد حدثنى محمد بن عبيد حدثنا عمر من آل حذيفة عنه عن الشعبى عن دحية الكلبى قال : قلت يا رسول الله ألا أحمل لك حمارا على فرس فتنتج لك بغلا فتركبها قال « إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون »

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه فى السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع فى القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقال تعالى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير) ولما ذكر تعالى فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التى يركبونها ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هى موصلة إليه فقال (وعلى الله قصد السبيل) كقوله (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال (قال هذا صراط على مستقيم) قال مجاهد فى قوله (وعلى الله قصد السبيل) قال طريق الحق على الله ، وقال السدى (وعلى الله قصد السبيل) الإسلام وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (وعلى الله قصد السبيل) يقول وعلى الله البيان أى يبين الهدى والضلالة . وكذا روى على بن أبى طلحة عنه وكذا قال قتادة والضحاك وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقا تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهى الطريق التى شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى (ومنها جائر) أى حائد مائل زائغ عن الحق قال ابن عباس وغيره هى الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود (ومنكم جائر) ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال (ولو شاء لهداكم أجمعين) كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع فى ذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال (لكم منه شراب) أى جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه ولم يجعله

ملحاً أجاجاً (ومنه شجر فيه تسيمون) أى وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم . كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد فى قوله فيه تسيمون أى ترعون ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعى ، وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس وقوله (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) ثم قال تعالى

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات فى أرجاء السموات نورا وضياء ليهتدى بها فى الظلمات ، وكل منها يسير فى فلكه الذى جعله الله تعالى فيه يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ولهذا قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه . وقوله (وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه) لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص (إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) أى آلاء الله ونعمه فيشكرونها

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه وجعله السمك والحيتان فيه وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها فى الحل والإحرام وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره أى تشقه وقيل تمخر الرياح وكلاهما صحيح وقيل تمخره بجؤجئها وهو صدرها المسمى الذى أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثا عن أبيهم نوح عليه السلام فإنه أول من ركب السفن وله كان تعليم صنعتها ثم أخذها الناس عنه قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل يسيرون من مطر إلى قطر ومن بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم لجلب ماهنالك إلى ماهنا وما هنا إلى ماهناك ولهذا قال تعالى (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى نعمه وإحسانه ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية البغدادى حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو عن سهل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال كلم الله البحر الغربى وكلم البحر الشرقى فقال للبحر الغربى إنى حامل فيك عبادا من عبادى فكيف أنت صانع فيهم ؟ قال أعرقهم ، فقال

بأسك فى نواحيك واحملهم على يدى وحرمت الحلية والصيد ، وكلم هذا البحر الشرقى فقال : إنى حامل فيك عبادا من عبادى فما أنت صانع بهم ؟ فقال : أحملهم على يدى وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد ، ثم قال البزار لا نعلم من رواه عن سهل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو وهو منكر الحديث . وقد رواه سهل عن النعمان بن أبى عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفا . ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد أى تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ولهذا قال (والجبال أرساها) وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة سمعت الحسن يقول : لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال ، وقال سعيد عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة أن الله لما خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة : ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحت صبحا وفيها رواسيها ، وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنى حجاج بن منهال حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن حبيب عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لما خلق الله الأرض مخضت وقالت أى رب تجعل على بنى آدم يعملون الخطايا ويجعلون على الخبث ؟ قال فأرسى الله فيها من الجبال ماترون ومالا ترون فكان إقرارها كاللحم يترجرج . وقوله (وأنهاراً وسبلا) أى جعل فيها أنهارا تجرى من مكان إلى مكان آخر رزقا للعباد ينبع فى موضع وهو ورق لأهل موضع آخر فيقطع البقاع والبرارى والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذى سخر لأهله وهى سائرة فى الأرض يمنة ويسرة وجنوبا وشمالا وشرقاً وغربا ما بين صغار وكبار وأودية تجرى حينا وتنقطع فى وقت وما بين نبع وجمع وقوى السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكا كما قال تعالى (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) الآية وقوله (وعلامات) أى دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برا وبحراً إذا ضلوا الطرق . وقوله (وبالنجم هم يهتدون) أى فى ظلام الليل قاله ابن عباس وعن مالك فى قوله (وعلامات وبالنجم هم يهدون) يقول النجوم وهى الجبال ، ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التى لا تخلق شيئا بل هم يخلقون ولهذا قال (أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون :) ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) أى يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازى على اليسير ، وقال ابن جرير يقول إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته رحيم بكم لا يعذبكم بعد الانابة والتوبة

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيرا فخير وإن شرا فشر . ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون كما قال الخليل (أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون) وقوله (أموات غير أحياء) أى هى جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل (وما يشعرون أيان يبعثون) أى لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذى يعلم كل شىء وهو خالق كل شىء

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك (أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب) وقال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون) وقوله (وهم مستكبرون) أى عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيد خلون جهنم داخرين) ولهذا قال ههنا (لاجرم) أى حقا (أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء (إنه لا يحب المستكبرين)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين (ماذا أنزل ربكم قالوا) معرضين عن الجواب (أساطير الأولين) أى لم ينزل شيئا إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى مأخوذ من كتب المتقدمين كما قال تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) أى يفترون على الرسول ويقولون أقوالا متضادة مختلفة كلها باطلة كما قال تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ ، وكانوا يقولون ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومى لما (فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم فتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى ينقل ويحكى فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله ، قال الله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أى إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وهكذا روى العوفى عن ابن عباس فى الآية (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) انها كقوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقال مجاهد يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئا

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قال العوفى عن ابن عباس فى قوله (قد مكر الذين من قبلهم) قال هو النمروذ الذى بنى الصرح ؟ قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد نحوه وقال عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أول جبار كان فى الأرض النمروذ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه ، وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ثم أماته وهو الذى بنى الصرح إلى السماء الذى قال الله تعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) وقال آخرون بل هو بختنصر وذكروا من المكر الذى حكاه الله ههنا كما قال فى سورة إبراهيم (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) وقال آخرون هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره كما قال نوح عليه السلام (ومكروا مكرا كبارا) أى احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة

وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة (بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) الآية وقوله (فأتى الله بنيانهم من القواعد) أى اجتثه من أصله وأبطل عملهم كقوله تعالى (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) وقوله (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال الله ههنا (فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم) أى يظهر فضائحهم وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) أى تظهر وتشتهر كما فى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته فيقال هذه غدرة فلان بن فلان » وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا (أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) تحاربون وتعادون فى سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ (هل ينصرونكم أو ينتصرون) (فماله من قوة ولاناصر) فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لافرار (قال الذين أوتوا العلم) وهم السادة فى الدنيا والآخرة والمخبرون عن الحق فى الدنيا والآخرة فيقولون حينئذ (إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) أى الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به مالايضره ومالا ينفعه

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجىء الملائكة اليهم لقبض أرواحهم الخبيثة (فألقوا السلم) أى أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين (ما كنا نعمل من سوء) كما يقولون يوم المعاد (والله ربنا ما كنا مشركين) (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم) قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) أى بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم وخلدت فى نار جهنم (لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) كما قال الله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ماأخبر به عن الأشقياء فان أولئك قيل لهم (ماذا أنزل ربكم) قالوا معرضين عن الجواب لم ينزل شيئا إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا خيرا أى أنزل خيرا أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) الآية كقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله اليه عمله فى الدنيا والآخرة ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أى من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا كقوله (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير) الآية . وقال تعالى (وماعند الله خير للأبرار) وقال تعالى (والآخرة خير وأبقى) وقال لرسوله ﷺ (وللآخرة خير لك من الأولى) ثم وصف الدار الآخرة فقال (ولنعم دار المتقين) وقوله

(جنات عدن) بدل من دار المتقين أى لهم فى الآخرة جنات عدن أى مقام يدخلونها (تجرى من تحتها الأنهار) أى بين أشجارها وقصورها (لهم فيها ما يشاءون) كقوله تعالى (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) وفى الحديث «ان السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم فلا يشتهى أحدمنهم شيئاً إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول أمطرينا كواعب أترابا فيكون ذلك» (كذلك يجزى الله المتقين) أى كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أى مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة كقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم) وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم قاله قتادة (أو يأتى أمر ربك) أى يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال وقوله (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هكذا تمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال (وما ظلمهم الله) لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بارسال رسله وإنزال كتبه (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك (وحاق بهم) أى أحاط بهم من العذاب الأليم (ما كانوا به يستهزئون) أى يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة (هذه النار التى كنتم بها تكذبون)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء) أى من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانا، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه قال الله تعالى رداً عليهم شبهتهم (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الانكار ونهاكم عنه آكد النهى وبعث فى كل أمة أى فى كل قرن وطائفة من الناس رسولا وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل اليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقوله تعالى (واسئل

من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء) فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهى تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل فلهذا قال (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) فقال (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) وقال نوح لقومه (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وقال فى هذه الآية الكريمة (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) كما قال الله (من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)وقوله (فان الله) أى شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فلهذا قال (لا يهدى من يضل) أى من أضله ، فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ أى لا أحد (ومالهم من ناصرين) أى ينقذونهم من عذابه ووثاقه (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أى اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أى استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل فى إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم (بلى) أى بلى سيكون ذلك (وعدا عليه حقا) أى لابد منه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر ، ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال (ليبين لهم) أى للناس (الذى يختلفون فيه) أى من كل شىء (ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) أى فى أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية (هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء كقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال فى هذه الآية الكريمة (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن كما قال الشاعر

إذا ما أراد الله أمرا فإنما * يقول له كن قولة فيكون

أى أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف لأنه الواحد القهار العظيم الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقال ابن أبى حاتم ذكر الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول قال الله تعالى: شتمنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له ذلك فأما تكذيبه إياى فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)

قال وقلت (بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أما شتمه إياى فقال (إن الله ثالث ثلاثة) وقلت (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) . هكذا ذكره موقوفا وهو فى الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ويحتمل أن يكون سبب نزولها فى مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وجعفر بن أبى طالب بن عم الرسول وأبو سلمة بن عبد الأسود فى جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضى الله عنهم وأرضاهم وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة فى الدنيا والآخرة فقال (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) قال ابن عباس والشعبى وقتادة المدينة وقيل الرزق الطيب قاله مجاهد ولا منافاة بين القولين فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيرا منها فى الدنيا فان من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير له منه وكذلك وقع فانهم مكن الله لهم فى البلاد وحكمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكاما وكل منهم للمتقين إماما وأخبر أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا فقال (ولأجر الآخرة أكبر) أى مما أعطيناهم فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) أى لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدثه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم قرأ هذه الآية (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) ثم وصفهم تعالى فقال (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) الآية وقال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) يعنى أهل الكتب الماضية أبشرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فان كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ليسوا من أهل السماء كما قلتم وكذا روى عن مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب وقاله مجاهد والأعمش وقول عبد الرحمن بن زيد الذكر القرآن واستشهد بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) صحيح لكن ليس هو المراد ههنا لأن المخالف لا يرجع فى إثباته بعد إنكاره إليه وكذا قول أبى جعفر الباقر نحن أهل الذكر ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر صحيح فان هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة . وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلى وابن عباس وابنى على الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلى بن الحسين زين العابدين وعلى بن عبد الله بن عباس وأبى جعفر الباقر وهو محمد بن على بن الحسين وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وعرف لكل ذى حق حقه ونزل كل[1] المنزل الذى أعطاه

(١) هكذا فى جميع النسخ والوجه ونزل كلا إلخ .

الله ورسوله واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين ، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا بشراً كما هو بشر كما قال تعالى (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ؟) وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) وقال تعالى (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) وقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ) ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أوملائكة ، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم (بالبينات) أى بالحجج والدلائل (والزبر) وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب إذا كتبته . وقال تعالى (وكل شىء فعلوه فى الزبر) وقال (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ثم قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر) يعنى القرآن (لتبين للناس ما نزل إليهم) أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل (ولعلهم يتفكرون) أى ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أى من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم كقوله تعالى (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) وقوله (أو يأخذهم فى تقلبهم) أى فى تقلبهم فى المعايش واشتغالهم بها فى أسفار ونحوها من الأشغال الملهية ، قال قتادة والسدى تقلبهم أى أسفارهم ، وقال مجاهد والضحاك وقتادة (فى تقلبهم) فى الليل والنهار كقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) وقوله (فما هم بمعجزين) أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه وقوله (أو يأخذهم على تخوف) أى أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم فإنه يكون أبلغ وأشد فان حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ولهذا قال العوفى عن ابن عباس (أو يأخذهم على تخوف) يقول إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك وكذا روى عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم ثم قال تعالى (فإن ربكم لرءوف رحيم) أى حيث لم يعاجلكم بالعقوبة كما ثبت فى الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وفيهما « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) وقال تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذى خضع له كل شىء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال أى بكرة

وعشيا فانه ساجد بظله لله تعالى . قال مجاهد إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم ، وقوله (وهم داخرون) أى صاغرون وقال مجاهد أيضاً سجود كل شيء فيؤه وذكر الجبال قال سجودها فيؤها وقال أبو غالب الشيبانى أمواج البحر صلاته وتزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة) كما قال (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) وقوله (والملائكة وهم لايستكبرون) أى تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته (يخافون ربهم من فوقهم) أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله (ويفعلون ما يؤمرون) أى مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره ، وترك زواجره

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لاإله إلا هو وأنه لا ينبغى العبادة إلا له وحده لاشريك له فانه مالك كل شيء وخالقه وربه (وله الدين واصباً) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدى وقتادة وغير واحد أى دائما وعن ابن عباس أيضاً أى واجبا ، وقال مجاهد أى خالصاله أى له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض كقوله (أفغير دين الله يبغون * وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) هذا على قول ابن عباس وعكرمة فيكون من باب الخبر وأما على قول مجاهد فانه يكون من باب الطلب أى ارهبوا أن تشركوا بى شيئا وأخلصوا لى الطاعة كقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) أى لعلمكم أنه لايقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجأون اليه وتسألونه وتلحون فى الرغبة اليه مستغيثين به كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) وقال ههنا (ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم) قيل اللام ههنا لام العاقبة وقيل لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا أى يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم وأنه المسدى إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم ثم توعدهم قائلا (فتمتعوا) أى اعملوا ماشئتم وعتعوا بما أنتم فيه قليلا (فسوف تعلمون) أى عاقبة ذلك

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيبا مما رزقهم الله فقالوا (هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلايصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون) أى جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه واتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم فقال (تالله لتسئلن عما

كنتم تفترون) ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وجعلوها بنات الله فعبدوها معه فأخطأوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا ولا ولد له ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال (ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى) وقوله ههنا (ويجعلون لله البنات سبحانه) أى عن قولهم وإفكهم (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون) وقوله (ولهم ما يشتهون) أى يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. فانه (إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا) أى كئيبا من الهم (وهو كظيم) ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن (يتوارى من القوم)أى يكره أن يراه الناس (من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) أى إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتنى بها ويفضل أولاده الذكور عليها (أم يدسه فى التراب) أى يئدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية ،أفمن يكرهون هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ (ألا ساء ما يحكمون) أى بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه كقوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) وقوله ههنا (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى النقص إنما ينسب إليهم (ولله المثل الأعلى) أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه (وهو العزيز الحكيم)

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة أى لأهلك جميع دواب الارض تبعا لإهلاك بنى آدم ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ،وينظر إلى أجل مسمى أى لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدا ، قال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن أبى الاحوص أنه قال كاد الجعل أن يعذب بذنب بنى آدم وقرأ الآية (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) وكذا روى الاعمش عن أبى إسحق عن أبى عبيدة قال : قال عبد الله كاد الجعل أن يهلك فى جحره بخطيئة بنى آدم وقال ابن جرير حدثنى محمد بن المثنى حدثنا إسماعيل ابن حكيم الخراعى حدثنا محمد بن جابر الحنفى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة قال سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، قال فالتفت إليه فقال بلى والله حتى إن الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين أنبأنا الوليد بن عبد الملك حدثنا عبيد الله بن شرحبيل حدثنا سليمان بن عطاء عن سلمة بن عبد الله عن عمه أبى مشجعة بن ربعى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله لا يؤخر شيئا إذا جاء أجله وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر » . وقوله (ويجعلون لله ما يكرهون) أى من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله وقوله (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور) وكقوله (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) وقوله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) وقال إخبارا عن أحد الرجلين أنه (١) دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما

(١) التلاوة : بالواو .

أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل ، كما ذكر ابن إسحق أنه وجد حجر فى أساس الكعبة حين نقضوها لبحددوها مكتوب عليه حكم مواعظ ، فمن ذلك : تعملون السيئات وتجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب . وقال مجاهد وقتادة (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) أى الغلمان وقال ابن جرير (أن لهم الحسنى) أى يوم القيامة كما قدمنا بيانه وهو الصواب ولله الحمد ، ولهذا قال تعالى رادا عليهم فى تمنيهم ذلك (لاجرم) أى حقا لابد منه (أن لهم النار) أى يوم القيامة (وأنهم مفرطون) قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم منسيون فيها مضيعون وهذا كقوله تعالى (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) وعن قتادة أيضا مفرطون أى معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أى يخلدون

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلا فكذبت الرسل فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيدنك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم مافعلوه . (فهو وليهم اليوم) أى هم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصا ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه (وهدى) أى للقلوب (ورحمة) أى لمن تمسك به (لقوم يؤمنون) وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيى الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء (إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) أى يفهمون الكلام ومعناه

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (وإن لكم) أيها الناس (فى الأنعام) وهى الإبل والبقر والغنم (لعبرة) أى لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه (نسقيكم مما فى بطونه) أفرده ههنا عوداً على معنى النعم أو الضمير عائد على الحيوان فان الأنعام حيوانات أى نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان ، وفى الآية الأخرى مما فى بطونها ويجوز هذا وهذا كما فى قوله تعالى (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره) وفى قوله تعالى (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان) أى المال ، وقوله (من بين فرث ودم لبناً خالصاً) أى يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته فيصرف منه دم إلى العروق ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة وروث إلى المخرج وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به ، وقوله لبناً خالصاً سائغا للشاربين) أى لا يعص به أحد ، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً) دل على إباحته شرعا قبل تحريمه ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذره والعسل كما جاءت السنة بتفصيل ذلك ، وليس هذا موضع بسط

ذلك كما قال ابن عباس فى قوله (سكرا ورزقاحسناً) السكر ماحرم من ثمرتيهما والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما وفى رواية السكر حرامه والرزق الحسن حلاله يعنى مايبس منهما من تمر وزبيب وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) ناسب ذكر العقل ههنا فانه أشرف مافى الانسان ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها قال الله تعالى (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلايشكرون * سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون)

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

المراد بالوحى هنا الالهام والهداية والارشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوى اليها ، ومن الشجر ومما يعرشون ثم هى محكمة فى غاية الاتقان فى تسديسها ورصها بحيث لايكون فى بيتها خلل ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها أى مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقه ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لاتحيد عنه يمنة ولايسرة بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل فتبنى الشمع من أجنحتها وتقىء العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها ثم تصبح إلى مراعيها ، وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (فاسلكى سبل ربك ذللا) أى مطيعة فجعلاه حالا من السالكة ، قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) قال : ألاترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم ، والقول الأول هو الأظهر وهو أنه حال من الطريق أى فاسلكيها مذللة لك ، نص عليه مجاهد ، وقال ابن جرير كلا القولين صحيح ، وقد قال أبو يعلى الموصلى حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا مكين بن عبد العزيز عن أبيه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « عمر الذباب أربعون يوما ، والذباب كله فى النار إلا النحل » وقوله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) مابين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها . وقوله (فيه شفاء للناس) أى فى العسل شفاء للناس أى من أدواء تعرض لهم ، قال بعض من تكلم على الطب النبوى لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء ولكن قال فيه شفاء للناس أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة فانه حار والشىء يداوى بضده ، وقال مجاهد وابن جرير فى قوله (فيه شفاء للناس) يعنى القرآن وهذا قول صحيح فى نفسه ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية فان الآية إنما ذكر فيها العسل ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا وإنما الذى قاله ذكروه فى قوله تعالله (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله تعالى (يا أيها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) والدليل على أن المراد بقوله تعالى (فيه شفاء للناس) هو العسل. الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من رواية قتادة عن أبى المتوكل على بن داود الناجى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله وسلم فقال إن أخى استطلق بطنه فقال « اسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ، قال « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله مازاده إلا استطلاقا فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فبرىء . قال بعض العلماء بالطب كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت فأسرعت فى الاندفاع فزاده إسهالا فاعتقد الاعرابى أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكذلك فلما

اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام ، وفى الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ، هذا لفظ البخارى . وفى صحيح البخارى من حديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار وأنهى أمتى عن الكى » وقال البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن عاصم بن عمر ابن قتادة سمعت جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن كان فى شىء من أدويتكم أو يكون فى شىء من أدويتكم خير : ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لدغة بنار توافق الداء وما أحب أن اكتوى » ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر به ، وقال الإمام أحمد حدثنا على بن إسحق أنبأنا عبد الله ، أنبأنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنا عبدالله بن الوليد عن أبى الخير عن عقبة بن عامر الجهنى قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث إن كان فى شىء شفاء : فشرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية تصيب ألما وأنا أكره الكى ولا أحبه » ورواه الطبرانى عن هرون بن سلول المصرى عن أبى عبد الرحمن القرى عن عبد الله بن الوليد به . ولفظه « إن كان فى شىء شفاء : فشرطة محجم » وذكره وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه وقال الإمام أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى فى سننه حدثنا على بن سلمة هو التغلى ، حدثنا زيد بن حباب ، حدثنا سفيان عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص عن عبدالله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن » وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً وقد رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثورى به موقوفا وله شبه . وروينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله فى صحفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها فليشتر به عسلا فليشربه كذلك فانه شفاء : أى من وجوه قال الله تعالى (ونزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقال (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) وقال (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) وقال فى العسل (فيه شفاء للناس) وقال ابن ماجه أيضاً : حدثنا محمود بن خداش حدثنا سعيد بن زكريا القرشى حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمى عن عبدالحميد بن سالم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء » الزبير بن سعيد متروك ، وقال ابن ماجه أيضاً حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الفريابى حدثنا عمرو بن بكر السكسكى ، حدثنا إبراهيم ابن أبى عبلة سمعت أبا أبى بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « عليكم بالسنا والسنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام » قيل يارسول الله وما السام ؟ قال « الموت » قال عمرو قال ابن أبى عبلة السنوت الشبت وقال آخرون بل هو العسل الذى فى زقاق السمن وهو قول الشاعر :

هم السمن بالسنوت لا لبس فيهم * وهم يمنعون الجار أن يقردا

كذا رواه ابن ماجه ، وقوله لا لبس فيهم أى لاخلط وقوله يمنعون الجار أن يقردا أى يضطهد ويظلم وقوله (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن فى الهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك فى هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه فى عباده وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف فى الخلقة كما قال الله تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة) الآية وقد روى

عن على رضى الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال لكيلا يعلم بعد علم شيئاً أى بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفند والخرف ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا موسى بن إسماعيل : حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور عن شعيب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو « أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات » وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين عاما لا أبالك يسأم

ورأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى منكرا عليهم أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الإلهية والتعظيم كما قال فى الآية الأخرى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) الآية قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى فذلك قوله (أفبنعمة الله يجحدون) وقال فى الرواية الأخرى عنه فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم ، وقال مجاهد فى هذه الآية هذا مثل الآلهة الباطلة ، وقال قتادة هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه فى زوجته وفى فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فان لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منك ، وقوله (أفبنعمة الله يجحدون) أى أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره ، وعن الحسن البصرى قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الرسالة إلى أبى موسى الأشعرى : واقنع برزقك من الدنيا فان الرحمن فضل بعض عباده على بعض فى الرزق بلاء يبتلى به كلا فيبتلى من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله . رواه ابن أبى حاتم

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثا وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد قال شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وبنين وحفدة: وهم الولد وولد الولد . وقال سنيد حدثنا حجاج عن أبى بكر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك : قال جميل حفد الولائد حولهن وأسلمت * بأكفهن أزمة الأجمال

وقال مجاهد بنين وحفدة : ابنه وخادمه . وقال فى رواية . الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ، وقال طاوس وغير واحد : الحفدة الخدم . وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصرى . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحكم ابن أبان عن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك ، قال الضحاك : إنما كانت العرب تخدمها

بنوها وقال العوفى عن ابن عباس قوله (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) يقول بنو امرأة الرجل ليسوا منه ويقال الحفدة الرجل يعمل بين يدى الرجل . يقال فلان يحفد لنا أى يعمل لنا قال وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل ، وهذا الأخير الذى ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظى ورواه عكرمة عن ابن عباس وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هم الأصهار قال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة فى معنى الحفدة وهو الخدمة الذى منه قوله فى القنوت : وإليك نسعى ونحفد ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ولهذا قال (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) قلت فمن جعل (وحفدة) متعلقا بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة وكذا قال الشعبى والضحاك فإنهم يكونون غالبا تحت كنف الرجل وفى حجره وفى خدمته وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث نضرة بن أكثم « والولد عبد لك» رواه أبو داود . وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده أنه معطوف على قوله (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أى جعل لكم الأزواج والأولاد خدما وقوله (ورزقكم من الطيبات) أى من المطاعم والمشارب ثم قال تعالى منكرا على من أشرك فى عبادة المنعم غيره (أفبالباطل يؤمنون) وهم الأنداد والأصنام (وبنعمة الله هم يكفرون) أى يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفى الحديث الصحيح « إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه ألم أزوجك؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ »

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا أى لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ولا يملكون ذلك لأنفسهم أى ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه ولهذا قال تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال) أى لا تجعلوا له أندادا وأشباها وأمثالا (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى انه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قال العوفى عن ابن عباس . هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير فالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوى هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحا بينا لا يجهله إلا كل غبى قال الله تعالى (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

قال مجاهد وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى يعنى أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشىء ولا يقدر على شىء بالكلية فلا مقال ولا فعال وهو مع هذا كل أى عيال وكلفة على مولاه (أينما يوجهه) أى يبعثه (لا يأت

بخير) ولا بنجيح مسعاه (هل يستوى) من هذه صفاته (ومن يأمر بالعدل) أى بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة (وهو على صراط مستقيم) وقيل الأبكم مولى لعثمان وبهذا قال السدى وقتادة وعطاء الخراسانى واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفى عن ابن عباس هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا يحيى بن إسحق السالحينى حدثنا حماد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إبراهيم عن عكرمة عن يعلى بن أمية عن ابن عباس فى قوله (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء) قال نزلت فى رجل من قريش وعبده يعنى قوله (عبدا مملوكا) الآية وفى قوله (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم - إلى قوله - وهو على صراط مستقيم) قال هو عثمان بن عفان، قال والأبكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو مولى لعثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء فى علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بعلم الغيب فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمانع وأنه إذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكن كما قال (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى فيكون ما يريد كطرف العين وهكذا قال ههنا (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهو أقرب إن الله على كل شىء قدير) كما قال (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ثم ذكر تعالى منته على عباده فى إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذى به يدركون به الأصوات والأبصار التى بها يحسون المرئيات والأفئدة وهى العقول التى مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل للانسان على التدريج قليلا قليلا كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «يقول تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أفضل من أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن دعانى لأجيبنه ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عزوجل فلا يسمع إلا لله ولا يبصر إلا لله أى ما شرعه الله له ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عزوجل مستعينا بالله فى ذلك كله ولهذا جاء فى بعض رواية الحديث فى غير الصحيح بعد قوله ورجله التى يمشى بها «فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى» ولهذا قال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) كقوله تعالى فى الآية الأخرى (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون * قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التى جعل فيها قوى تفعل ذلك وسخر الهواء يحملها وبسير الطير كذلك كما قال تعالى فى سورة الملك (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير) وقال ههنا (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتا أى من الأدم يستخفون حملها فى أسفارهم ليضربوها لهم فى إقامتهم فى السفر والحضر . ولهذا قال (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها) أى الغنم (وأوبارها) أى الإبل (وأشعارها) أى المعز ، والضمير عائد على الأنعام (أثاثا) أى تتخذون منه أثاثا وهو المال وقيل المتاع وقيل الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأساس البسط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالا وتجارة ، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والضحاك وقتادة ، وقوله (إلى حين) أى إلى أجل مسمى ووقت معلوم وقوله (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) قال قتادة يعنى الشجر (وجعل لكم من الجبال أكنانا) أى حصونا ومعاقل كما (جعل لكم سرابيل تقيكم الحر) وهى الثياب من القطن والكتان والصوف (وسرابيل تقيكم بأسكم) كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك (كذلك يتم نعمته عليكم) أى هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته (لعلكم تسلمون) هكذا فسره الجمهور وقروه بكسر اللام من تسلمون أى من الاسلام ، وقال قتادة فى قوله (كذلك يتم نعمته عليكم) هذه السورة تسمى سورة النعم ، وقال عبدالله بن المبارك وعباد بن العوام عن حنظلة السدوسى عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (تسلمون) بفتح اللام يعنى من الجراح رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد وأخرجه ابن جرير من الوجهين ورد هذه القراءة وقال عطاء الخراسانى إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب ألا ترى إلى قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا) وما جعل من السهل أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى الى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) وما تقى من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر ، وقوله (فان تولوا) أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم (فانما عليك البلاغ المبين) وقد أديته إليهم (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أى يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره (وأكثرهم الكافرون) كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مجاهد أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) فقال الأعرابى نعم ، قال (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) الآية قال الأعرابى نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابى نعم حتى بلغ (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) فولى الأعرابى فأنزل الله (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) الآية

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا

الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة وأنه يبعث من كل أمة شهيدا وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فلهذا قال (ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا) أى الذين أشركوا (العذاب فلا يخفف عنهم) أى لا يفتر عنهم ساعة واحدة (ولا هم ينظرون) أى لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب فانه إذا جىء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه فتقول إنى وكلت بكل جبار عنيد الذى جعل مع الله إلهاً آخر وبكذا وبكذا وتذكر أصنافا من الناس كما جاء فى الحديث ، ثم تنطوى عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال الله تعالى (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) وقال تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) ، ثم أخبر تعالى عن تبرى آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أى الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك * فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أى قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال الخليل عليه الصلاة والسلام (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) الآية وقال تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم) الآية ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) قال قتادة وعكرمة ذلوا واستسلموا يومئذ أى استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع . وكقوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) أى ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقال (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا) الآية وقال (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت ، وقوله (وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير . ثم قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا) الآية أى عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه) أى ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم كما قال تعالى (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقد قال الحافظ أبو يعلى حدثنا سريج بن يونس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله ابن مرة عن مسروق عن عبد الله فى قول الله (زدناهم عذابا فوق العذاب) قال زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال. وحدثنا سريج بن يونس حدثنا إبراهيم بن سليمان حدثنا الأعمش عن الحسن عن ابن عباس فى الآية أنه قال (زدناهم عذابا فوق العذاب) قال هى خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها فى الليل وببعضها فى النهار

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) يعنى أمتك ، أى اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال له رسول الله ﷺ « حسبك » فقال ابن مسعود رضى الله عنه فالتفت فإذا عيناه تذرفان وقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) قال ابن مسعود قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم وكل شىء ، وقال مجاهد كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل فان القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتى وكل حلال وحرام وما الناس اليه محتاجون فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وهدى) أى للقلوب (ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال الأوزاعى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) أى بالسنة ، ووجه اقتران قوله (ونزلنا عليك الكتاب) مع قوله (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أن المراد والله أعلم إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وقال تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال وهو متجه حسن

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقال (والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل ، وقال على بن أبى طلحه عن ابن عباس : (إن الله يأمر بالعدل) قال شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال سفيان بن عيينة العدل فى هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيه أحسن من سريرته ، وقوله (وإيتاء ذى القربى) أى يأمر بصلة الأرحام كما قال (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا)وقوله (وينهى عن الفحشاء والمنكر) فالفواحش المحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال فى الموضع الآخر (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وأما البغى فهو العدوان على الناس ، وقد جاء فى الحديث « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطعية الرحم » وقوله (يعظكم) أى يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر (لعلكم تذكرون) وقال الشعبى عن بشير بن نهيك سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية رواه ابن جرير ، وقال سعيد عن قتادة قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيىء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه . وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها [قلت] ولهذا جاء فى الحديث « إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها » وقال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى حدثنا يحيى بن محمد مولى بنى هاشم حدثنا الحسن بن داود المنكدرى حدثنا عمر بن على المقدمى عن على بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فاراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتحف إليه قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه فانتدب رجلان

فأتيا النبي ﷺ فقالا نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ « أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله وأما ماأنا فأنا عبد الله ورسله » قال ثم تلا عليهم هذه الآية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية قالوا ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فقالا أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا فى مضر — أى شريفا — وقد رمى الينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا فى هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا فيه أذنابا وقد ورد فى نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثنى عبد الله بن عباس قال بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان ابن مظعون فكشر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تجلس ؟ » فقال بلى قال فجلس رسول الله ﷺ مستقبله فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه فى الأرض فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء فأقبل إلى عثمان بمجلسته الأولى فقال يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة فقال « ومارأيتنى فعلت ؟ » قال رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتنى فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئا يقال لك قال « وفطنت لذلك ؟ » فقال عثمان نعم قال رسول الله ﷺ « أتانى رسول الله آنفا وأنت جالس » قال رسول الله ؟ قال « نعم » قال فما قال لك قال « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية قال عثمان فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى وأحببت محمدا ﷺ ، إسناد جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل ورواه ابن أبى حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصرا ، حديث آخر عن عثمان بن أبى العاص الثقفى فى ذلك قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا هريم عن ليث عن شهر بن حوشب عن عثمان بن أبى العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص بصره فقال « أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السوره (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) » الآية وهذا إسناد لا بأس به ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين والله أعلم .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا وبين قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) الآية وبين قوله تعالى (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) أى لا تتركوها بلا كفارة وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه فى الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها — وفى رواية — وكفرت عن يمينى » لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا وهى قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ولهذا قال مجاهد فى قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يعنى الحلف أى حلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد — هو ابن أبى شيبة — حدثنا ابن نمير وأبو أسامة عن زكريا — هو ابن أبى زائدة — عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف فى الإسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية فانه لا يزيده الإسلام إلا شدة » وكذا رواه مسلم عن ابن أبى شيبة به ومعناه

أن الإسلام لايحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه فان فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه وأما ماورد فى الصحيحين عن عاصم الأحول عن أنس رضى الله عنه أنه قال : حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دورنا . فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عمارة الأسدى حدثنا عبد الله بن موسى أخبرنا أبو ليلى عن بريدة فى قوله (وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم) قال نزلت فى بيعة النبى ﷺ كان من أسلم بايع النبىّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام فقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) هذه البيعة التى بايعتم على الإسلام (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا صخر ابن جويرية عن نافع قال لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد فانا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الاشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر فيكون فصل بينى وبينه » المرفوع منه فى الصحيحين ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من شرط لأخيه شرطا لايريد أن يفى له به فهو كالمدلى جاره إلى غير منعة » وقوله (إن الله يعلم ماتفعلون) تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها وقوله (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) قال عبدالله بن كثير والسدى : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه وقال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . وقوله (أنكاثا) يحتمل أن يكون اسم مصدر ، نقضت غزلها أنكاثا أى أنقاضا ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان أى لا تكونوا أنكاثا جمع نكث من ناكث ولهذا قال بعده (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) أى خديعة ومكرا (أن تكون أمة هى أربى أمة) أى تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى . وقد قدمنا ولله الحمد فى سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد فسار معاوية إليهم فى آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لايشعرون فقال له عمرو بن عنبسة الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضى أمدها » فرجع معاوية رضى الله عنه بالجيش قال ابن عباس (أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى أكثر وقال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه وقوله (إنما يبلوكم الله به) قال سعيد بن جبير يعنى بالكثرة رواه ابن أبى حاتم وقال ابن جرير أى بأمره إياكم بالوفاء بالعهد (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فيجازى كل عامل بعمله من خير وشر

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول الله تعالى (ولو شاء الله لجعلكم) أيها الناس (أمة واحدة) كقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) أى لوفق بينكم ولما جعل اختلافا ولا تباغض ولا شحناء (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وهكذا قال ههنا (ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير ، ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا أى خديعة ومكراً لئلا تزل قدم بعد ثبوتها مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول فى الاسلام ولهذا قال (وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) ثم قال تعالى (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أى لاتعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها فإنها قليلة ولوحيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ماعند الله هو خير له ، أى جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ولهذا قال (إن كنتم تعلمون * ماعندكم ينفد) أى يفرغ وينقضى فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه (وما عند الله باق) أى وثوابه لكم فى الجنة باق لانقطاع ولانفاد له فإنه دائم لايحول ولا يزول (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم أى ويتجاوز عن سيئها

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل التابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بنى آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله وان هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا وأن يجزيه بأحسن ماعمله فى الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت ، وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه فسرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنها هى السعادة ، وقال الحسن ومجاهد وقتادة لايطيب لأحد حياة إلا فى الجنة ، وقال الضحاك هى الرزق الحلال والعبادة فى الدنيا ، وقال الضحاك أيضاً هى العمل بالطاعة والانشراح بها ، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا سعيد بن أبى أيوب حدثنى شرحبيل بن شريك عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه » ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرى به . وروى الترمذى والنسائى من حديث أبى هانئ عن أبى على الجهنى عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « قد أفلح من هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » وقال الترمذى هذا حديث صحيح ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لايظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا » انفرد بإخراجه مسلم

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من

الشيطان الرجيم وهذا أمر ندب ليس بواجب حكى الاجماع على ذلك أبوجعفر بن جرير وغيره من الأئمة ، وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الاستعاذة مبسوطة فى أول التفسير ولله الحمد والمنة . والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، وحكى عن حمزة وأبى حاتم السجستانى أنها تكون بعد التلاوة واحتجا بهذه الآية ، ونقل النووى فى شرح المهذب مثل ذلك عن أبى هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعى ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم . وقوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) قال الثورى ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون معناه لا حجة له عليهم ، وقال آخرون كقوله (إلا عبادك منهم المخلصين) ، (إنما سلطانه على الذين يتولونه) قال مجاهد يطيعونه ، وقال آخرون اتخذوه ولياً من دون الله (وهم به مشركون) أى أشركوه فى عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون معناه أنه شركهم فى الأموال والأولاد

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ (إنما أنت مفتر) أى كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد ، وقال مجاهد (بدلنا آية مكان آية) أى ورفعناها وأثبتنا غيرها ، وقال قتادة هو كقوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها) الآية فقال تعالى مجيباً لهم (قل نزله روح القدس) أى جبريل (من ربك بالحق) أى بالصدق والعدل (ليثبت الذين آمنوا) فيصدقوا بما أنزل أولا وثانياً وتخبت له قلوبهم (وهدى وبشرى للمسلمين) أى وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت ان محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش وكان بياعاً يبيع عند الصفا وربما كان رسول الله ﷺ يجلس اليه ويكلمه بعض الشىء وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر مايرد جواب الخطاب فيما لابد منه فلهذا قال الله تعالى رداً عليهم فى افترائهم ذلك (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى القرآن أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل قال محمد بن إسحق بن يسار فى السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً مايجلس عند المروة إلى سبيعة غلام نصرانى يقال له جبر عبد لبعض بنى الحضرمى فأنزل الله (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وكذا قال عبد الله بن كثير ، وعن عكرمة وقتادة كان اسمه يعيش . وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن محمد الطوسى حدثنا أبو عامر حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مسلم ابن عبد الله اللائى عن مجاهد عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وقال الضحاك بن مزاحم هو سلمان الفارسى وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة ،

وقال عبيد الله بن مسلم كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابا لهما بلسانهما فكان النبى ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية ، وقال الزهرى عن سعيد بن المسيب : الذى قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة قبحه الله

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدى من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله فى الدنيا ولهم عذاب أليم موجع فى الآخرة ، ثم أخبر تعالى أن رسوله صلى الله عليه وسلم ليس بمفتر ولا كذاب لأنه إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم شرار الخلق (الذين لا يؤمنون بآيات الله) من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملا وإيمانا وإيقانا ، معروفا بالصدق فى قومه لايشك فى ذلك أحد منهم بحيث لايدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عزوجل

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه وأن لهم عذابا عظيما فى الدار الآخرة لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئا فهم غافلون عما يراد بهم (لاجرم) أى لابد ولاعجب أن من هذه صفته (أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة — وأما قوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرها وجاء معتذراً إلى النبى ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وهكذا قال الشعبى وقتادة وأبو مالك . وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن أبى عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبى ﷺ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كيف تجد قلبك ؟ » قال مطمئنا بالإيمان قال النبى ﷺ « إن عادوا فعد » ورواه البيهقى بأبسط من ذلك وفيه أنه سب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم

فقال يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير قال « كيف تجد قلبك ؟ » قال مطمئناً بالإيمان فقال « إن عادوا فعد » وفى ذلك أنزل الله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد، أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها. رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول نعم ، فيقول أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً رضى الله عنه حرق ناسا ارتدوا عن الإسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال « لا تعذبوا بعذاب الله » وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » فبلغ ذلك عليا فقال ويح أم ابن عباس : رواه البخارى

وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن حميد بن هلال العدوى عن أبى بردة قال : قدم على أبى موسى معاذ بن جبل باليمن فإذا رجل عنده قال ماهذا ؟ قال رجل كان يهوديا فأسلم ثم تهود ونحن نريده على الإسلام منذ قال أحسبه شهرين فقال والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه فضربت عنقه فقال قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال « من بدل دينه فاقتلوه » وهذه القصة فى الصحيحين بلفظ آخر . والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله كما ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى ، فقال له لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين مافعلت فقال إذاً أقتلك فقال أنت ، وذاك ، قال فأمر به فصلب وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر وفى رواية ببقرة من نحاس فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى فأمر به أن يلقى فيها فرفع فى البكرة ليلقى فيها فبكى فطمع فيه ودعاه فقال إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة تلقى فى هذه القدر الساعة فى الله فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى الله . وفى بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياما ثم أرسل إليه بحمر ولحم خنزير فلم يقربه ثم استدعاه فقال ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما إنه قد حل لى ولكن لم أكن لأشمتك بى ، فقال له الملك فقبل رأسى وأنا أطلقك فقال وتطلق معى جميع أسارى المسلمين قال نعم فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه رضى الله عنهما

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم فوافقوهم على الفتنة ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه وانتظموا فى سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا فأخبر تعالى أنه من بعدها أى تلك الفعلة وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم (يوم تأتى كل نفس تجادل) أى تحاج (عن نفسها) ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة (وتوفى كل نفس ما عملت) أى من خير وشر (وهم لا يظلمون) أى لا ينقص من ثواب الخير ولا يراد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيرا

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا

اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لا يخاف كما قال تعالى (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا) وهكذا قال ههنا (يأتيها رزقها رغداً) أى هنيئاً سهلا (من كل مكان فكفرت بأنعم الله) أى جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ اليهم كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار) ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما فقال (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى اليهم ثمرات كل شىء ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شىء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه وقوله (والخوف) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه وجعل كل مالهم فى دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذى بعثه الله فيهم منهم وامتن به عليهم فى قوله (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) الآية . وقوله تعالى (فاتقوا الله يا أولى الألباب * الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولا) الآية وقوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ـ إلى قوله ـ ولا تكفرون) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن وجاعوا بعد الرغد فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ورزقهم بعد العيلة وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفى عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وحكاه مالك عن الزهرى رحمهم الله وقال ابن جرير حدثنى ابن عبد الرحيم البرقى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عبد الرحمن بن شريح أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمى حدثه أنه سمع مشرح بن هاعان يقول سمعت سليم بن عمير يقول صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبى ﷺ وعثمان رضى الله عنه محصور بالمدينة فكانت تسأل عنه ما فعل ؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا قتل . فقالت حفصة والذى نفسى بيده إنها القرية ـ تعنى المدينة ـ التى قال الله تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله) قال ابن شريح وأخبرنى عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه أنه كان يقول إنها المدينة

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذى يستحق العبادة وحده لاشريك له ثم ذكر تعالى ماحرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير (وما أهل لغير الله به) أى ذبح على غير اسم الله ومع هذا (فمن اضطر اليه) أى احتاج من غير بغى ولا عدوان (فإن الله غفور رحيم) . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بمافيه كفاية عن إعادته ولله الحمد ، ثم نهى

تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ماوصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه فى جاهليتهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه ، وما فى قوله (لما تصف) مصدرية أى ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ، ثم توعد على ذلك فقال (إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) أى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، أما فى الدنيا فمتاع قليل وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم كما قال (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقال (إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ، متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أرخص فيه عند الضرورة — وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى — ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال (وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل) أى فى سورة الأنعام فى قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما — إلى قوله — لصادقون) ولهذا قال ههنا (وماظلمناهم) أى فيما ضيقنا عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى فاستحقوا ذلك كقوله (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً فى حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) أى أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى وأقبلوا على فعل الطاعات (إن ربك من بعدها) أى تلك الفعلة والزلة (لغفور رحيم)

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً) فأما الأمة فهو الإمام الذى يقتدى به ، والقانت: هو الخاشع المطيع ، والحنيف المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال (ولم يك من المشركين) قال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبى العبيدين أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فقال الأمة معلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله ، وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذى يعلم الناس دينهم ، وقال الأعمش عن يحيى بن الجزار عن أبى العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال أخبرنى عن الأمة ، فقال الذى يعلم الناس الخير ، وقال الشعبى حدثنى فروة بن نوفل الأشجعى قال : قال ابن مسعود إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، فقلت فى نفسى غلط أبو عبد الرحمن وقال إنما قال الله (إن إبراهيم كان أمة) فقال تدرى ما الأمة وما القانت ؟ قلت الله أعلم فقال الأمة الذى يعلم الخير ، والقانت المطيع لله ورسوله ، وكذلك كان معاذ ، وقد روى من غير وجه عن ابن

مسعود، أخرجه ابن جرير ، وقال مجاهد أمة أى أمة وحده والقانت المطيع وقال مجاهد أيضا كان إبراهيم أمة أى مؤمنا وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار وقال قتادة كان إمام هدى والقانت المطيع لله ، وقوله (شاكرا لأنعمه) أى قائما بشكر نعم الله عليه كقوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به وقوله (اجتباه) أى اختاره واصطفاه كقوله (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) ثم قال (وهداه إلى صراط مستقيم) وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى ، وقوله (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وقال مجاهد فى قوله (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى لسان صدق ، وقوله (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده ، وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) كقوله فى الأنعام (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم * دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ثم قال تعالى منكرا على اليهود

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

لا شك أن الله تعالى شرع فى كل ملة يوما من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئا من المخلوقات الذى كمل خلقها يوم الجمعة فألزمهم تعالى به فى شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك ولهذا قال تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) قال مجاهد اتبعوه وتركوا الجمعة ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى بن مريم فيقال إنه حولهم إلى يوم الأحد ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظا على السبت حتى رفع وإن النصارى بعده فى زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة والله أعلم

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد » لفظ البخارى . وعن أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة والمقضى بينهم قبل الخلائق » رواه مسلم

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله محمدا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة . قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى ، وقوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) أى من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) الآية، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فى قوله (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقوله (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الآية أى قد علم الشقى منهم والسعيد وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات فانه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب

(إنك لا تهدى من أحببت) ، (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

يأمر تعالى بالعدل فى القصاص والمماثلة فى استيفاء الحق كما قال عبد الرزاق عن الثورى عن خالد عن ابن سيرين أنه قال فى قوله تعالى (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصرى وغيرهم واختاره ابن جرير ، وقال ابن زيد كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا يارسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد

وقال محمد بن إسحق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة النحل كلها بمكة وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضى الله عنه ومثل به فقال رسول الله ﷺ « لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلا منهم » فلما سمع المسلمون ذلك قالوا والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر السورة ، وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم ، وقد روى هذا من وجه آخر متصل فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا صالح المرى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه حين استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه أو قال لقلبه فنظر إليه وقد مثل به فقال « رحمة الله عليك إن كنت ما علمتك إلا وصولا للرحم فعولا للخيرات والله لولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع — أو كلمة نحوها — أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك » فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر الآية ، فكفر رسول الله ﷺ يعنى عن يمينه وأمسك عن ذلك ، وهذا إسناد فيه ضعف لأن صالحا هو ابن بشير المرى ضعيف عند الأئمة ، وقال البخارى هو منكر الحديث وقال الشعبى وابن جريج نزلت فى قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم لنمثلن بهم فأنزل الله فيهم ذلك ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه حدثنا هدبة بن عبد الوهاب المروزى حدثنا الفضل بن موسى حدثنا عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلا ومن المهاجرين ستة فقال أصحاب رسول الله ﷺ لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم فلما كان يوم الفتح قال رجل لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : إن رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا — ناساً سماهم — فأنزل الله تبارك وتعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر السورة فقال رسول الله ﷺ « نصبر ولا نعاقب » وهذه الآية الكريمة لها أمثال فى القرآن فانها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما فى قوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ثم قال (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) الآية . وقال (والجروح قصاص) ثم قال (فمن تصدق به فهو كفارة له) وقال فى هذه الآية (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ثم قال (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله) تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوته ، ثم قال تعالى (ولا تحزن عليهم) أى على من خالفك فإن الله قدر ذلك (ولا تك فى ضيق) أى غم (مما يمكرون) أى مما يجهدون أنفسهم فى عداوتك وإيصال الشر إليك فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم ، وقوله (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أى معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقوله لموسى وهرون (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) وقول النبى ﷺ للصديق وهما فى الغار « لا تحزن إن الله معنا » وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله

تعالى (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) وكقوله تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) وكما قال تعالى (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً) الآية ومعنى (الذين اتقوا) أي تركوا المحرمات (والذين هم محسنون) أي فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم ، وقال ابن أبي حاتم ثنا أبي ثنا محمد بن بشار ثنا أبو أحمد الزبير ثنا مسعر عن ابن عون عن محمد بن حاطب قال كان عثمان رضي الله من الذين اتقوا والذين هم محسنون . آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

بعون الله تعالى قد تم طبع الجزء الثاني من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير

ويليه الجزء الثالث إن شاء الله

وأوله تفسير سورة الإسراء والحمد لله

أولا وآخراً

obeikandl.com